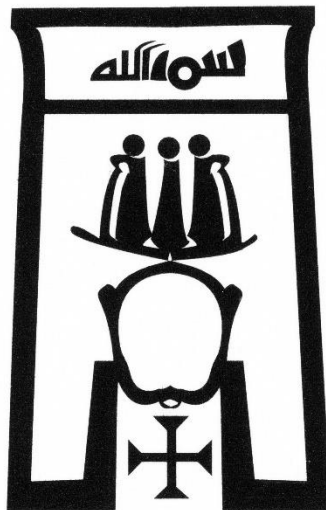




Section française de la direction des antiquités du Soudan



**This translation is provided by the French
Archaeological Unit in Sudan for research purposes
only**

**No reproduction or copy is authorized unless
specific request is addressed at sfdas@sfdas.com**

©SFDAS All rights reserved

*National Corporation for Antiquities and Museums, PO Box 178, Khartoum, Soudan
Tél. et fax (+249) 183 786 156 / sfdas@sfdas.com / www.sfdas.com
Ambassade de France à Khartoum – Service de la Valise diplomatique
13, rue Louveau, 92438 Châtillon Cedex*

البحث الأثري في السودان

د. مارك مايو

ترجمة: أ. طلال محمد المبارك

هذا الإيجاز التاريخي، والذي يتطرق، من بين أمور أخرى، إلى أعمال محمد أحمد¹، ويليسبي² وإدوارد³، سيمكننا من تقييم تطور قضايا البحث في الآثار السودانية منذ القرن التاسع عشر وحتى يومنا هذا، وإعادة إدراج السياسة العلمية الفرنسية والدولية ضمن لوحة تاريخية مفهومة. هذا الأمر يساهم في تقديم العمل الذي يتعلق بالتخطيط الحضري المروي والإشراف عليه، وهذا نتاج طبيعي، لكنه متأخر إلى حد ما من البحث في الآثار السودانية.

1. قصص كبار المكتشفين

يجب الانتظار حتى نهاية القرن الثامن عشر والتاسع عشر على وجه الخصوص حتى يتمكن مكتشفون أوروبيون من السفر لاكتشاف مروي، لغرض أولي، هو الكشف عن مصادر النيل⁴. هذه البعثات التي قامت أساساً على قراءة المصادر الكلاسيكية، تقدم شهادات رائعة للملاحظات الأولى للمواقع الأثرية، تتيح لنا في وقت متأخر تسليط الضوء على تطور البعثات الإستكشافية التي تستبج أعمال النهب، إلى بعثات بحث أثرية⁵.

المكتشف الأسبق جيمس بروس (1730-1794)، فقد تولى بعثة منذ 1769 للبحث عن مصادر النيل، كانت تستقر في بلاد الحبشة⁶، بعد قيامه برحلة قادته من مسوِّح على ضفة البحر الأحمر إلى قنذار عاصمة أثيوبيا، ومن ثم على طول النيل الأزرق حتى بحيرة تانا، حيث المنبع، وبعد ذلك أقام رحلة العودة حتى مصر. وقد رافقه في هذه الرحلة الرسام الإيطالي بيلاغوني، الذي لاحظ أول أطلال من اكسوم بالقرب من قرية الجراوية. فقصته إكتشافه كانت "رحلة إلى مصادر النيل في النوبة والحبشة خلال السنوات 1768-1773" فقد كان هذا أول كتاب تم فيه تجميع البقايا المكتشفة في عاصمة مروي القديمة، 1790.

في بداية القرن التاسع عشر تمت إعادة رصد لهذه الأطلال مرةً أخرى بواسطة بوركارث (1784-1817)، حيث تم إرساله عن طريق الجمعية الإفريقية بلندن لبعثة إستكشافية إلى إفريقيا. وقد لاحظ في قواعد من الطوب الأحمر خلال إقامته بشندي في أبريل 1814، وهذه

¹ أحمد 2010، 29-34

² ويليسبي 1996

³ إدوارد 2004

⁴ مينتيرو 2010ب، 22-27؛ 2011

⁵ شيني 1967، 24-27؛ توروك 1997، 7-20.

⁶ مينتيرو 2010أ، 19-21

القواعد أكثر خشونة من تلك المستعملة في مصر، كما لاحظ بعض المنشآت الحجرية على مساحة واسعة نوعاً ما⁷.

إنضم فرديريك كايو من مدينة ناننت (1869 - 1787) إلى البعثة العسكرية منذ 1820، بقيادة إسماعيل باشا (الإبن الثالث لولي عهد مصر محمد علي) بهدف اكتشافه مدينة مروى القديمة⁸. صعوداً نحو النيل، فقد قام بإصلاح العديد من المواقع النوبية المهمة ودراستها، كمقبرة صادنقا ومعبد صولب (شكل رقم 1) وكرمة ومقبرة نوري وجبل البركل⁹. ثم تقدم عن الجيش نحو شندي برفقة صديق السفر بيير كونستانت لونورزك، فلمح أهراماً في البجراوية في يوم 25 أبريل 1821، إكتشف عقبها مدينة مروى. وله كتاب بعنوان "رحلة إلى مروى، إلى النيل الأبيض" 1826، يقدم فيه الدراسة الأولى في علم الآثار لهذا الموقع الغنية جداً بالصخور واللوحات (شكل 2)¹⁰.

وبعد أشهر قليلة عقبه على هذه المواقع لينانت دو بيلفوند (1799-1883) المكلف بواسطة ويليام بانك للسفر إلى إقليم شندي للوصول إلى سنار، فمرّ بالقرب من الموقع في نوفمبر 1821، دون التوقف به. ثم عاد من ناحية أخرى لدراسة أهرام مروى في أبريل 1822، أي بعد كايو بعام واحد عقب إكتشافه - وللمرة الأولى- دراسة آثار النقعة والمصورات الصفراء¹¹.

أثار نشر إكتشافات هؤلاء الرّحالة، بالأخص الأهرام المروية، على الفور إهتمام "الرحالة اللصوص" مثل جيوساب فيرليني (1800-1870)¹². فقد قام بتفكيك العديد من الأهرام في عام 1834، كما قام بتفجير الهرم الكبير (بجراوية رقم 6)، مسلطاً الضوء على كنز الكنداكاة أماني شخيتو الذي باعه بمتحف ميونخ في 1839 ومتحف برلين في 1844. لم يكن إلا مع البعثة البروسية لكارل ريتشارد (1810-1884) بين عامي 1842 و 1845 حيث بدأت أهداف دراسة أثرية في إتجاه التطور¹³. أيضاً *les Denkmäler aus Aegypten und Aethiopien* (شكل رقم 3) يوضح المرجع الأول البيوغرافي المختص في بيان المواقع الأثرية النوبية ودراستها، مثل مقبرة مروى، وموقع المصورات الصفراء والنقعة، مسلطين الضوء على أهمية الحضارة النوبية في علم الآثار¹⁴.

⁷ بورخاردت 1813، 275. مع ملاحظة أنه لم يتم بتعريف الموقع على مدينة مروى.

⁸ شوفي 1989؛ ديواشتر 1994.

⁹ لوكلائت 1967، 6-15؛ شوفي 1989.

¹⁰ كايو 1826.

¹¹ شيني 1958، 75، 138-150.

¹² فيرليني 1837.

¹³ فريير ورينيك 1984؛ فريير وغرونير 1996.

¹⁴ لوبسيوس 1849-1859.

بالإصرار على الدور الذي لعبه ليببوسوس في عام 1842، حيث عبر هذا الأخير الضفة النيلية في مصر، ومن ثم صعد حتى قلب السودان. كان شامبوليون قد أتى قبل عشرين عاماً عن طريق حملة أرسلها ملك فرنسا، ولكن توقفت عند الشلال الثاني. نزل ليببوسوس إذن حتى مروي، بجمعه للآثار المتناثرة في طريقه فإنه يفسر لماذا كان متحف برلين الأغني أوروبياً بالآثار السودانية في العصر الحجري.

في عام 1845، وصلت هذه القطع الأثرية إلى هامبورغ. ستسمح منشورات *Denkmäler aus Aegypten und Aethiopen*، "آثار مصر والنوبة"، بإعادة إكتشاف الإقليم وتقديم عدد من النصوص والرسوم والنسخ. ليببوسوس، على عكس كايو، مختص في تدريب علم المصريات، يكوّن *Denkmäler* عدداً ملاحظاً من المعلومات، إلى جانب معالجة علمية ذات جودة عالية.

2. ثمرات علم الآثار المروية الأولى (نهاية القرن التاسع عشر وحتى الربع الأول من القرن العشرين)

إقليم مروي

كانت أولى التدخلات الأثرية على مواقع من الأراضي السودانية بقيادة بودج عقب الغزو البريطاني على السودان في عام 1898. احتوى برنامج الاستكشافي للمواقع المروية وجبل البركل على نتائج المعدات الأثرية¹⁵. تم قيادة مسح أثري للمواقع المروية بجزيرة مروي في البطانة بواسطة كروفوت في عام 1906. ويعدّ أول من أنجز عملاً أثرياً مبتكراً، وفي الوقت نفسه تحليلي واصطناعي، حيث بدأ بالتأكيد بدراسة المصادر الاقتصادية ومعرفة أنواع المواقع الأثرية للإقليم¹⁶، وبعد عامين من هذا التاريخ تم وصف البقايا بالنقعة والمصورات الصفراء بواسطة سكوت- مونكريف¹⁷.

إنّ أول برنامج تنقيبي لمدينة مروي تم بواسطة بعثة جامعة ليفربول بقيادة قارستانج من 1909 حتى 1914¹⁸. حيث ركزت أعمال الكشف على دراسة "المدينة الملكية"، والمباني الأثرية الكبيرة المجاورة لها، والمقابر الشعبية الشرقية. تعتبر أعمال قارستانج الأولى في محاولة إعادة بناء التاريخ المعماري للمدينة القائم على التنوع في مواد البناء، وكذلك في إعداد أول تصنيف للفخار.

النوبة السفلى

¹⁵ بودج 1907.

¹⁶ غريفيث 1911 ج و 1912؛ كروفوت 1920، 85-92.

¹⁷ سكوت مونكريف 1908، 192-203.

¹⁸ غارستانج 1911، غارستانج 1914، 9-23؛ غارستانج 1916، 1-27.

كانت العمليات الأثرية الأولى ذات الأهمية الكبرى في النوبة نتيجة قرار تمديد الشلال الأول بأسوان بواسطة مصر من 1908 حتى 1910. كذلك أول عملية مسح أثري في النوبة المصرية بهدف انقاذ المواقع المهددة بالغرق خلال أربعة مواسم، من 1907 إلى 1911، حيث تم تغطية 152 كيلو متراً من ضفة النيل جنوب الشلال الأول، بين الشلال ووادي السبوع تحت إشراف رايزنر أولاً، ثم كولين فيرث، ويمثل الكشف 151 مقبرة، والتي تضم حوالي 8000 قبراً منفرداً، وستة مواقع سكنية فقط تم الكشف عنها بصورة سطحية¹⁹. ومن بين المجموعة "و" التي تضم الآثار الإغريقية الرومانية والمروية، لم يتم سوى إحصاء القبور التي تمت معالجتها من الجهة الجنوبية من النوبة السفلى. هذا المسح الذي ركز عمله على التفريق بين مختلف الثقافات "النوبية" وعلاقتهم بمصر ما قبل الأسرة الفرعونية تم إكماله على الفور من قبل حملات أخرى على المناطق القريبة من الحدود المصرية والنوبة السفلى.

في النوبة السودانية، يعتبر وولي وماكلفير أول من بدءاً برنامجاً كشفياً لمدينة مروية²⁰ ومقبرتها المتصلة²¹ على موقع كرنوق (شكل 4). إنَّ عملية الكشف التي أجرتها بعثة جامعة بنسلفانيا في 1909، أتاحت توثيق العمارة المدنية المروية، في إقليم لم يتم دراسته بعد، وإعطاء وصف لأدوات أثرية تختلف عن تلك الأدوات في مواقع من إقليم البطانة.

كانت الكشوفات الأثرية لمدينة فرس تحت إشراف غريفيث²² من 1909 وحتى 1912 من جامعة أكسفورد، كشفت عن هيكله مهمة تعتبر النموذج المعماري المدني المروي "القصر الغربي" (شكل رقم 5)، على الصعيد الجنائزي تحتوي المقبرة الشاسعة المتصلة بالمدينة على مواد أثرية جديدة بالملاحظة.

الهوامش الجنوبية للمملكة

وفي ذات الفترة، نقت بعثة *Wellcome Foundation* "مؤسسة ويلكم" في العام 1914 تحت إشراف كروفورد، قرية أبوجيلي²³، الواقعة على النيل الأزرق على خط عرض يرتفع قليلاً عن مدينة كوستي، كما نقت في 1909 وحتى 1914، تحت إشراف أديسون، مقبرة جبل موية²⁴، الواقعة على الأراضي بين أبو جيلي وكوستي. موقعهما في أقصى الجنوب مقارنة بمملكة مروية إضافة إلى خصوصية المواد التي تم الكشف عنها، يجعل من الصعب إدراج هذه المواقع ضمن الفترة الكوشية وثقافتها.

¹⁹ رايزنر 1910؛ فيرث 1912، 1915، 1927.

²⁰ وولي 1911.

²¹ وولي وماكلفير 1910.

²² غريفيث 1924، 141-180؛ غريفيث 1925، 57-172.

²³ كروفورد وأديسون 1951.

²⁴ أديسون 1949؛ أديسون 1956، 4-18.

3. ما بين الحربين العالميتين

المقابر الملكية والمراكز الحضرية المهمة في نبتة ومروي

تعتبر البعثات المهمة لجامعة هارفارد ومتحف بوسطن للفنون الجميلة للمقابر الملكية بالكرو ونوري، وكذا في مراكز نبتة الحضرية (1916-1919) ومروي (1922-1925) خطوة أساسية في المعرفة التاريخية والزمنية للحقبة الكوشية.

مقبرتا الكرو ونوري بالقرب من جبل البركل، اللتان تم اكتشافهما بواسطة حملة هارفارد-بوسطن تحت إشراف رايزنر، كشفت عن مقابر حكام الأسرة الخامسة والعشرين، وأسلافهم وأتباعهم النباتيين، وكذا عن أمتعتهم المهجورة المرتبطة²⁵. في جبل البركل، المعابد والقصور الفرعونية والكوشية في نبتة هي ما تم اكتشافها²⁶، كما تم اكتشاف مجموعتي الأهرام الواقعة خلف الجبل من الناحية الشمالية الغربية، والتي يمكن إدراجها ضمن الحقبة المروية القديمة²⁷. بمروي، احتوى العمل على البحث في ثلاث مقابر ذات أهرام وهي المقابر الشمالية، والغربية، والجنوبية من مروي²⁸. فإن جميع هذه الاكتشافات، التي قامت على الدراسة التسلسلية للمقابر الملكية النبتية - المروية وتسجيلاتها، أتاحت لرايزنر تأسيس أول تسلسل زمني للخلافة الملكية الكوشية²⁹.

النوبة السفلى

موازاةً مع هذه البعثات، فإن تغطية المواقع المروية للبطانة، والتي تشمل النقعة والمصورات الصفراء والبعصة أو جبل جيلي وعدد من البقايا الأثرية تم تأكيدها بواسطة كروفوت وأديسون ودونهام ووايتهيد³⁰. هذا العمل أكد على أهمية "جزيرة مروي" التي تم ذكرها بواسطة المؤلفين القدامى.

بعد تمديد سد أسوان الأول، كان الارتفاع الجديد للمياه دافعاً لتنفيذ المسح الأثري الثاني بالنوبة من 1929 وحتى 1934، بإشراف إيميري³¹. فقد أكدت عملية التنقيب التي استمرت جنوباً حتى الحدود السودانية، ندرة وجود البقايا الأثرية المروية في النوبة السفلى. وقد

²⁵ دونهام 1950، 1955.

²⁶ دونهام 1970.

²⁷ دونهام 1957.

²⁸ دونهام 1963.

²⁹ ريزنر 1923، 34-77.

³⁰ كروفوت 1920، 85-92؛ أديسون 1926، 56-58؛ أديون ودونهام 1922، 39-46، وايتهايد 1928، 59-67.

³¹ إيميري وكروان 1935.

شملت آثار سكان وادي العرب عدداً من البيوت ومعصرة خمر ، ويرجع تاريخ هذه الآثار إلى القرن الثالث الميلادي³².

وفي ذات الفترة، قامت بعثة جامعة أكسفورد بقيادة ماكادام بالتنقيب عن مركز الكوة الحضري، مركزاً على عمارة المعابد ودراسة تسجيلاتها، لكنها قامت بالمثل بالكشف عن سكان نبتيين ومرويين مرتبطين بالأضرحة³³.

4. السنوات من 1950 حتى 1970: إنقاذ في النوبة والرجوع إلى مروي

البطانة الغربية

تم في الخمسينيات تنفيذ عمليتي تنقيب على مدى قصير في البطانة بقيادة سميث وآدم³⁴، وبالفور-بول³⁵. وقد كشفت أول عملية استطلاع عن أربعة مواقع ربما مروية أو قبل ذلك، منها جبل صريفات، وحفيره ومبانيه المشابهة لمباني المصورات الصفراء.

لقد حققت جامعة همبولدت عملية تنقيب ما بين 1957-1958 بقيادة هينتز³⁶ في منطقة الكربة على الجزء الشمالي الغربي لـ"جزيرة مروي". واحتوى هذا المسح على بيان تفاصيل المواقع الأثرية، والتي تشمل النقعة ومطير والبعصة والعواليب، وتجميع المواد الموجودة على السطح وكذا بيان تسجيلاتها. وكانت المصورات الصفراء أيضاً موضوعاً لعمليات البحث الكبرى تحت إدارة هينتز، في محاولة لتمييز المكونات المختلفة للحوش الكبير بغرض إنشاء تسلسل زمني ذي علاقة بالموقع، من خلال الاستطلاع³⁷.

أجرى كل من فيركوتير وثابت حسن ثابت جراء طلبهم لمصلحة الآثار السودانية (الهيئة العامة للآثار والمتاحف حالياً) في 1958-1960 مسوحات في المركز الحضري لود بأنقا³⁸. هذه المسوحات تشمل المسح الجزئي لأحد القصور يعود تاريخه إلى القرن الأول قبل الميلاد، أيضاً الاستطلاع أو المسح الجزئي لمعبدتين صغيرين، أحدهما مخصص لإيزيس، وعدداً من المباني الإدارية والدينية.

تم إجراء عمليات مسح في أواسط الستينيات على مدينة مروي بواسطة جامعة كلغاري تحت إشراف ب. ل. شيني³⁹. وكان الغرض من هذه الأعمال هو إنجاز عمليات بحث استراتيجية

³² إميري وكروان 1935، 108.

³³ كروان 1936، 200-211؛ ماكادام 1949، 1955.

³⁴ سميث وآدم 1950، 301-306.

³⁵ بالفوربول 1952، 202-215.

³⁶ هينتز 1959، 171-196.

³⁷ هينتز 1962، 170-202؛ هينتز 1963، 217-226؛ هينتز 1968، 667-684.

³⁸ فيركوتير 1962، 263-299.

³⁹ شيني 1970، 17-19؛ شيني 1984، 498 - 504؛ شيني وبرادلي 1980.

تهدف إلى تحقيق أبعاد زمنية متكاملة للمدينة، حيث تعود عمليات السكن الأولى في المنطقة إلى القرن العاشر قبل الميلاد. هذه البحوث لا تشمل فقط العمارة الدينية للنصب (معبد آمون ومعابد الممرات المقدسة)، وإنما تشمل أيضاً الاستغلال المحلي. كدراسة الصناعات الحديدية وإنتاج الخزف، والشروط البيئية للموقع التي تتيح إكمال التعرف على مختلف الحقب الثقافية.

النوبة السفلى وأعمال اليونسكو التنقيبية

ترتب على بناء السد العالي في أسوان "حملة إنقاذ آثار النوبة" تحت إشراف منظمة اليونسكو في العام 1959 وحتى 1969. إلى جانب ترحيل المعابد النوبية الكبيرة من الجانب المصري (أبوسمبل وفيلا) (شكل رقم 6)، احتوت هذه الحملة على عملية تنقيب على نطاق دولي مننظم وعمليات مسح امتدت إلى أقصى جنوب الإقليم ببطن الحجر بين الشلالين الثاني والثالث. وأتاح هذا المسح رغم كل شيء إعادة تهيئة 1000 موقع أثري على امتداد 160 كيلومتراً من ضفة النيل. وعلى الرغم من أنه لم يتم نشر جميع النتائج إلا أنّ عدداً من تقارير عملية المسح التي استهدفت عدداً من المواقع المرورية، أتاحت الفهم الأمثل للآثار في هذا الإقليم وتاريخه الثقافي⁴⁰.

في النوبة المصرية، مواقع قصر إبريم⁴¹ وتوماس⁴² وجبل عدا⁴³ والشكان⁴⁴ قدمت وثائق غنية عن الإستيلاء المروي على أقصى شمال المملكة. حيث تم إخراج بقايا أثرية من نفس الحقبة في أرمينيا الغربية بواسطة جامعة بنسلفانيا⁴⁵، وكذا بجزيرة دبروسة بواسطة جامعة كولورادو⁴⁶. أما عن بعثة مصلحة الآثار السودانية فقد قامت بدورها بالتنقيب عن مواقع سكنية بفرس⁴⁷، وعلى جزيرة مینارتي⁴⁸ وكمنارتي وميلي⁴⁹.

جميع هذه الأشغال، بتفصيل أكثر من تلك التي تم إنجازها في النوبة المصرية، وتجمع مياه الإقليم في بحيرة النوبة، قادت الباحثين إلى صياغة ملخصات عامة عن البحث عقب حملة التنقيب، على سبيل المثال، كتب مصر في النوبة، إميري، الذي نشر في 1965، النوبة تحت

⁴⁰ سميت 1962؛ آدامز ونوردستروم، 1963، 10 – 46؛ كلاسنس 1967، 79-86.

⁴¹ كامينوس 1968.

⁴² لوكلاننت 1962، 197-222؛ لوكلاننت 1963، 17-25.

⁴³ ميلي 1963، 147 – 165، ص ص 45-47؛ ميلي 1964، 7 – 14، 1-8؛ ميلي 1967، 123 – 126؛ ميلي 1968.

⁴⁴ جاكيت 1971، 121 – 131.

⁴⁵ تريغير 1967.

⁴⁶ فيرويرس 1962، 19 – 33؛ هيويس 1964، 174 – 187.

⁴⁷ فيرويرس 1962، 19-33.

⁴⁸ آدامز 1965، 148 – 176.

⁴⁹ آدامز ونوردستروم 1963، 10-46.

حكم الفرعون لتريغر، 1976⁵⁰. وأخيراً والمهم النوبة، رواق إفريقيا لأدامز، 1977 يقدم ملخصاً لنتائج جميع الحملات الاستطلاعية للنوبة، كما يهتم بالعلاقات الخاصة بين النوبة السفلى ومصر، لكن بالمثل يضع النقاط على المعارف الأثرية لما تبقى من النيل الأوسط⁵¹.

تم التنقيب عن تبو إلى الجنوب من جزيرة أرقو بواسطة بعثة مؤسسة H. M. Blackmer وجامعة جنيف، تحت إشراف ميستر⁵²، مكتشفين معبداً مكوناً خلال الأسرة الخامسة والعشرين، كان يتم استغلاله وتعديله حتى العهد المروي.

5. عمليات المسح الأخيرة: في اتجاه تجديد القضايا

عقب اختفاء إقليم النوبة السفلى، فإن البحوث الأثرية وجدت نفسها مضطرة للجوء إلى حدود الأراضي الجنوبية. استمر الاهتمام بالمؤسسات الحضارية الكبيرة لجزيرة مروى، والذي يظهر في كتاب "مملكة كوش" ويليبي الذي تم نشره في 1996، ملخصاً للتقدمات الكبيرة في معرفة الآثار وتاريخ الحقبة الكوشية، وأيضاً ملخص توروك، مملكة كوش، كتيب عن الحضارة النباتية المروية، 1997⁵³.

استمرارية المسوحات

خلال التسعينيات، تطور الوعي بالحاجة إلى مواصلة المسوحات الميدانية تحسباً للدمار الناتج عن إنشاء شبكة طرق⁵⁴ وسدود⁵⁵ من جهة، والتطور الحضري من جهة أخرى⁵⁶، مع بدء المسوحات في مناطق جغرافية غير معروفة حتى الآن كالنيل الأبيض أو الأقاليم الصحراوية⁵⁷. مثل هذه الاستطلاعات تسلط الضوء على إمكانية دراسات أكثر طموحاً تركز على العلاقة بين المستوطنات البشرية وبيئتها.

أيضاً أثناء عمليات المسح على طول الطريق الرابط بين البجراوية وعطبرة، فإن مقبرة كبيرة للغاية تم اكتشافها بقباتي. إذ أنه لا يمكن تغيير مسار الطريق، فقد تم التنقيب عن الموقع على عجل خلال شتاء 1994-1995، وقد تم الكشف عن مدافن مروية تعود للعصور الوسطى⁵⁸.

⁵⁰ إميري 1965؛ تريغير 1967.

⁵¹ أدامز 1977.

⁵² مايستر 1973، 199-193؛ جاكى - غوردن، بونيه، جاكى 1969، جاكى - غوردن، بونيه 1999.

⁵³ ويليبي 1996؛ توروك 1997 ب.

⁵⁴ مالنسون 1996.

⁵⁵ بانر 1997، 137-155.

⁵⁶ زوراوسكى 2002، 73-85.

⁵⁷ عيسى 1999؛ ويليبي 2001 أ؛ ويليبي 2003.

⁵⁸ إدوارد 1998.

بين عامي 2001 و 2009، *Merowe Dam Archaeological Salvage Project* – *MDASP*، صعد مشروع تنقيب عالمي المستوى بغرض إخراج البقايا المهددة ودراساتها جراء بناء سد مروحي، الموجودة على بعد حوالي أربعين كيلو متراً على سفح جبل البركل. حيث تم تقسيم عمليات استكشاف منطقة الفيضانات إلى عدد من البعثات الأثرية، مما يتيح تسليط الضوء على الدور الكبير للإقليم في الإدارة الكوشية للشلال الرابع⁵⁹، تشمل المواقع المهمة مقابر مروية غنية بالأثاث الجنائزي⁶⁰، وكذا جزيرة أم موري، تشمل نطاقاً سكنياً واسعاً ذا طابع زراعي، تتألف من سلسلة من الأكواخ ومنازل من الطوب اللين أو الطوب الأحمر أو الحجر، تعود في تاريخها إلى المروية المتأخرة في العصور الوسطى⁶¹.

مسوحات مبرمجة

اليوم عدد مهم من البقايا الأثرية المروية تحت البحث في عشرات المواقع التي كان يستغلها المرويون تمتد من إقليم النوبة الوسطى وحتى النيل الأبيض. بين الشلالين الثالث والرابع، الموقع الحضري المهم في دوكي قيل، موقع بمساحة 8 هكتار يحتوي على معبد وقصور، تم اكتشافه تحت إشراف بونيه (جامعة جنيف)⁶²، على الرغم من أن مدينة الكوة تم اكتشافها منذ 1977 تحت إشراف ويليسبي (جمعية الدراسات السودانية بلندن)⁶³. أخيراً في جبل البركل، بعثتان اقتسمتا عمليات كشف عدد من المعالم الأثرية الملكية والإدارية: البعثة الإيطالية بقيادة سيامبيني (جامعة روما) والتي تهتم بشكل أساسي بالقصر *B1500* وقصرين آخرين *B2200* و *B2400*⁶⁴، وبعثة الهيئة العامة للآثار والمتاحف بقيادة كندال والحسن أحمد محمد (متحف بوسطن) تدرس من ناحيتها العديد من المعابد بالموقع⁶⁵.

⁵⁹ مختلف المعاهد التي شاركت في المشروع تضم: جامعة كولون ومشروعها ACACIA (مسح جزيرة بوني)، المتحف الأثري لدانيسك ومشروعها GAME (معرض دانيسك للآثار)، أكاديمية بوليش للعلوم، وجامعة همبولدت برلين صاحبة مشروع H.U.N.E (المعرض النوبي لجامعة همبولدت)، والمعهد الإيطالي لإفريقيا والشرق)، معهد الآثار UCL، جمعية الدراسات السودانية صاحبة مشروع مسح أمري حتى كريكمان 1999-2007 (عدد من الشهادات للإستغلال خلال العصر المروي المتأخر وفوق المروي)، ومؤسسة مروي الهنغارية، وجامعة كاليفورنيا في سانتا باربارا، وجامعة ولاية أريزونا صاحبة المشروع المشترك UCSB-ASU الحملة الأثرية للشلال الرابع، والتي تحمل اسم UCSB المسح الأثري للضفة الغربية من الكاب وحتى مقرات، (لم يتم إحصاء أيّاً من المواقع المروية) ومعهد المتحف الشرقي لجامعة شيكاغو ومشروعها حملة المعهد الشرقي النوبية (لم يتم إحصاء أيّاً من المواقع المروية).

⁶⁰ لعرض متكامل لمراجع المسح صفحة الإنترنت http://www.nubiansociety.org/mdasp_articles.html.

⁶¹ ويليسبي 2003، 5-7؛ باين 2007، ص 9-13؛ جنز 2006، 18 وتوماس 2008، 64-66.

⁶² بونيه وأحمد 1999، 251-256؛ بونيه وفاليل 2004، 109-112، بونيه وفاليل 2010، 43-50.

⁶³ ويليسبي 2000، 5-10؛ ويليسبي 2001، ب، 64-70؛ ويليسبي 2002، 26-39؛ ويليسبي 2004، 148-157؛ ويليسبي 2009، 72-77؛ ويليسبي 2010، 48-55.

⁶⁴ دونادوني 1993، 101-115؛ دونادوني 1994، 54-59؛ روكاتي 1997، 12-18؛ راكوتي وبييرغامبيني 1999،

633-642؛ روكاتي 2003، 59-64؛ روكاتي 2004، 384-388؛ روكاتي 2008، 249-261.

⁶⁵ كندال 1991، 302-313؛ كندال 1994، 139-144؛ كندال 1997، 161-228؛ كندال 1997، ب، 320-354؛ كندال و وولف 2007، 82-88؛ كندال و وولف 2011، 237-260.

مواقع السودان الأوسط الواقعة على امتداد الضفة النيلية كثيرة ومن المرجح أن تكون موضوعاً لبرنامج الكشف. بالقرب من عطبرة، فقد أنشأت الهيئة القومية للآثار والمتاحف في العام 2000 مشروع بربر - العبيدية الأثري، بشراكة مع المتحف البريطاني، والذي يضم في الوقت الحالي اثنين من مواقع التنقيب. يوجد أيضاً في الضانقيل، مركز حضري كوشي مهم، معبد آمون، تم إنشاؤه في العهد النوبي وظل في نشاط حتى نهاية العهد المروي، تم اكتشافه منذ العام 2000 تحت إدارة صلاح محمد أحمد وأندرسون (الهيئة القومية للآثار والمتاحف والمتحف البريطاني).⁶⁶

هنالك برنامجان للكشف الأثري، الأول منذ العام 1999، بقيادة Kr. Grzymiski وعلي عثمان محمد صالح (متحف أوناريو الملكي وجامعة الخرطوم). سياسة الكشف الأثري عامة، والمسوحات مشياً على الأقدام والمسح الجيومغناطيسي، وتهتم بصفة أساسية بالمنشآت الإدارية وترميم معبد آمون الكبير بالمدينة⁶⁷. بينما تركّز البعثة التي قادها وولف (معهد الآثار الألماني) على البحث في (الأحواض الملكية) ونظامها الهيدروليكي منذ 1999.⁶⁸

تم اكتشاف موقع الحمداط الحضري منذ 2001 تحت قيادة وولف (معهد الآثار الألماني وجامعة شندي)، ضمن برنامج يجمع بين البحث الجيومغناطيسي وبحث القطاعات (السكان، أفران الفخار، السور).⁶⁹

تم التنقيب عن موقع العواليب (المكتشف أثناء عملية المسح بمحاذاة طريق البجراوية - شندي في 1995) منذ العام 2001 تحت إدارة بانر (متحف قدانسك البولندي). يمثل خمس أكوام من بينها معبد صغير وبعض البناءات الإدارية⁷⁰.

يعتبر موقع الحصا (شكل رقم 7)، الذي تم التنقيب عنه في عام 2002 ومن ثم إجراء الحفريات والبحث بإشراف فانسننت روندو (الوحدة الفرنسية بالهيئة العامة للآثار والمتاحف، فرنسا) في 2004 مدينة مروية، حيث لا يوجد سوى مركب معبد آمون الذي يشكل موضوعاً للبحث المتعمق في الوقت الحالي. كما يمثل الموقع أيضاً موضوعاً للمسح الجيومغناطيسي والمسوحات السطحية التي تتيح لنا قراءة الرؤية العامة للنسيج العمراني

⁶⁶ أحمد وأندرسون 2000، 37-17، أحمد وأندرسون 2005، 27-10؛ أحمد وأندرسون 2006، 2-3؛ أحمد وأندرسون 2008، 46-40؛ أحمد وأندرسون 2010، 55-50.

⁶⁷ غرزمسكي 2006، 238-227؛ غرزمسكي 2008، 51-47.

⁶⁸ وولف، هوف، أوناسك 2003، 87-71 و 2008، 116-101؛ وولف S، وولف P، أوناسك، هوف، نووتنيك 2008، 230-157 و 2009، 262-215.

⁶⁹ وولف P 2002، 111-92؛ 2004 ج، 97-83؛ 2006، 264-257.

⁷⁰ بانر 2005، 55-54؛ الطيب وكولوسوسكا 2005، 158-145.

للمدينة⁷¹. نلاحظ أيضاً وجود موقع دمبوياء، الذي تم إكتشافه ولم يتم التنقيب عنه بعد يحتوي على قصر ملكي كما يحتمل وجود مبنى آخر ذو طبيعة مجهولة.

أخيراً فإن موقع المويس الذي تم التنقيب عنه تحت إشراف بو ومن ثم ميليه (متحف اللوفر) منذ العام 2007، يعتمد على منهجية متعددة، تربط بين البحث المغناطيسي والبحث سيراً على الأقدام وأخذ العينات والإستطلاعات، وكذا البحث على نطاق واسع للمعالم أو قطاعات الأعمال الحرفية⁷².

إن المواقع الرئيسية للمصورات الصفراء والنقعة في البطانة استمرت في أن تكون موضوعاً للدراسات الشاملة، تحت إشراف كلاوديا ناصر وتوجيهاته (جامعة هومبولت) منذ 2005⁷³ وفيلدونغ (مدير إداري، المتحف المصري ببرلين) وكروبر (المدير الحقلية) منذ 1995⁷⁴، والتي ركزت في الموقع الأول على دراسة الخطوات الأولى من الإنشاء والاستغلال (النبتي والمروي القديم)، كما ركزت على دراسة المعابد في الموقع الثاني.

تسعى بعض البعثات للتنقيب عن مقابر النخب المروية بإمكانيات هائلة بغرض الفهم التاريخي والمادي لإمبراطورية مروي (صاي، صادنقا أو بربر)⁷⁵، وتركز معظم برامج البحث الحالية على مسألة التخطيط المروي.

يمكن أن تنشأ العديد من المسائل نتيجة دراسة المواقع "الحضرية". حيث تحاول بعض البعثات فهم التنظيم العام والوظيفي للمؤسسة الحضرية خلال العهد المروي (المويس، العواليب، الحمدا، الكوة ودوكي قيل). منهجيتها متعددة، فهي تجمع بين عمليات الإستطلاع والمسح سيراً على الأقدام والقياس المغناطيسي للحصول على الخطوط العريضة لقطاعات المواقع، الحفريات والإستطلاعات الصغيرة التي تساعد في تقييم مدة إستغلال المواقع، وكذا البحث الدقيق للقطاعات والمباني المختارة بغرض إجراء دراسات الحالات التالية: القصور (المويس)، والمباني الإدارية (أواليب، دوكي قيل)، معابد صغيرة (المويس)، مناطق سكنية أو مناطق حرفيين أو أكثر من ذلك نطاق حرفيي النار والأفران (الكوة، الحمدا والمويس).

هناك بعثات تركز بحوثها حول نصب أثري، مع إجراء دراسة في الوقت ذاته للخصائص المعمارية وتطورها الزمني وكذا الخصائص الوظيفية. وتأتي المسائل المرتبطة بالملكية والدين والإدارة المروية في المقام الأول. ونفس الشيء بالنسبة لمعظم بحوث معابد آمون

⁷¹ ليونوبل وروندو 2003، 101-115؛ روندو 2005، 399-401؛ روندو 2006، 41-47.

⁷² ليونوبل وسوكي 2005، 59-61؛ بو 2008، 52-53؛ بو 2010، 218-224؛ بو 2011، 339-357.

⁷³ وولف 1997، 20-29؛ وولف 1998، 10-12؛ وينغ وولف 1998-2000؛ وولف 2001 أ و ب؛ وولف 2004،

436-445؛ وولف 2004 د، 47-101؛ ناصر 2011، 317-338.

⁷⁴ ويلدنج 1998، 183-190؛ ويلدنج 1999؛ ويلدنج وكروبر 2006 و 2011؛ كروبر 2006، 287-296.

⁷⁵ أحمد وأندرسون 2003، 25-34.

(النقعة والحصا والضانقيل). تهتم بعثات أخرى بدراسة القصور (جبل البركل) أو منشآت أخرى مرتبطة بالملكية ("الحمامات الملكية" بمروي، أو المركبات B2200 و B2400 بنبتة).

يقدم هذا الموجز السريع أيضاً تغييراً كبيراً في قضايا الحفريات التي تتركز منذ فترة طويلة في الجزء الشمالي من الإمبراطورية وعلى وجه الخصوص في المجال الجنائزي. وفي فترة السبعينيات، وخاصة في العام 1990، فإن الحفريات التي أجريت في جزيرة مروي، والاكتشاف التدريجي لشبكة حضرية في شبكة كثيفة ومعقدة، كل هذا يسمح لنا بإجراء دراسة تركيبية تتركز على المكونات الحضرية الكبرى (أنظر الوحدة التالية).

6. الوحدة الفرنسية SFDAS والآثار في السودان

عقب لبسيوس وفرليني، شهدت فترة المهديّة إبان الحكم التركي المصري، وإدارته المدعومة من الغرب، شهدت فرض الضرائب الباهظة وإضفاء الثقافة الغربية المتزايد يحث على رد فعل سوداني ضد الحكومة وتأسيس دولة إسلامية خلال اثني عشر عاماً. توفي المهدي في العام 1885 وتولى خلافته ذراعه الأيمن عبدالله التعايشي، و تعرض العمل الأثري إلى التوقف طوال هذه الفترة. وقد استولى الإنجليز على السودان جراء معركة أمدردان تحت قيادة الجنرال كنتشنر بين عامي 1896 و 1898.

قام كنتشنر بتأسيس قوة استعمارية جديدة "الحكم الثنائي الإنجليزي المصري"، الذي يضم البلدين، وعاد علماء الآثار، بريطانيون في المقام الأول، ومن ثم الألمان، أما الفرنسيون الذين عملوا بمصر عقب اكتشاف شامبليون لفك رموز اللغة الهيروغليفية فسينتظرون مدة أطول من الزمن لصياغة اهتماماتهم تجاه السودان. تعتبر الإدارة البريطانية أول من طور التراث الأثري السوداني بين عامي 1898 و 1956، حيث تم خلق وظيفة خاصة في عام 1939 "مفوض شؤون الآثار"، وقد كان آر كل⁷⁶ هو أول من شغل هذه الوظيفة. كما كان البريطانيون أيضاً أول من وضع تشريعات الآثار في عام 1905، في قاعدة القانون الحالي.

بعد وقت قصير من إعلان الاستقلال، قامت السلطات السودانية بتكليف الفرنسي جان فيركوتير (شكل رقم 8)، لإدارة شؤون الآثار والسودنة، فهو صاحب الفكرة التي قادت إلى إنشاء مصلحة سودانية تختص بالتراث. ورجل خبير في السودان، قام بالحفر الأثري منذ العام 1953 للمدينة المحصنة في الإمبراطورية الوسطى بكور في النوبة السفلى، كما قام في عام 1954 بالأشغال الأولى على جزيرة صاي بين الشلالين الثاني والثالث. كان فيركوتير من المشاركين في عمليات إنقاذ الآثار التي يستهدفها سد أسوان⁷⁷. يشرف على العديد من

⁷⁶ غراديل 2009، 387.

⁷⁷ فيركوتير وأدمز 1961.

بعثات التنقيب في المناطق المعرضة للخطر والتغطية الفوتوغرافية المصاحبة، كما ناشد المجتمع الدولي لضم السودان إلى الحملة الكبرى لليونسكو. وقد تم تعيينه أستاذاً بجامعة شارلس دي غول – ليل 3 في عام 1961، كما كان يمثل المؤسسة في حملة إنقاذ آثار النوبة. وفي ذاك العهد، جعلت هذه المشاركة من الجامعة المركز القومي للبحث الفرنسي في الآثار السودانية⁷⁸، من خلال انضمام إحدى وحدات المركز الوطني للبحث العلمي للمؤسسة، وتدشين عمليتي حفر أثري على مواقع عكاشة ومرجيسا⁷⁹. في عام 1969، كانت نهاية حملة النوبة فرصة لفيركوتير لتركيز أشغاله على جزيرة صاي، البعثة التي سيقودها حتى العام 1981.

وفي الوقت نفسه، تم تأسيس الوحدة الفرنسية بالهيئة العامة للآثار والمتاحف السودانية⁸⁰ بمبادرة من فيركوتير (شكل رقم 9). تحت مظلة "إتفاقية التعاون الثقافي والفني بين حكومة جمهورية السودان الديمقراطية وحكومة جمهورية فرنسا"، الموقعة في الخرطوم بتاريخ 22 ديسمبر 1969، حيث تؤمن التعاون مع إدارة الآثار السودانية، وبالمثل في مجال الحفريات، فإن هذه الإتفاقية شاملة أيضاً لمنشورات تقارير الأنشطة. فعلم تنظيم المتاحف وحفظ التراث وإنشاء تقارير الأنشطة يمثل جزءاً من أعمال البعثة.

تعتبر الوحدة الفرنسية بالهيئة العامة للآثار والمتاحف مكملاً لمصلحة الآثار السودانية (الهيئة العامة للآثار والمتاحف) بمتحف السودان القومي (شكل رقم 10). هذا الموقع المميز يتيح لها تقديم العون للبعثات الفرنسية التي تعمل في السودان، وتطوير الشراكة العلمية والمتحفية. الوحدة الفرنسية بالهيئة تمثل معهد الآثار الوحيد الدائم في السودان، فهي تحتل موقع رأس الحربة للبحث العلمي الفرنسي في السودان، إلى جانب الشراكة الطبيعية مع الهيئة العامة للآثار والمتاحف، كما تضاف تعاونات مختلفة مع المؤسسات العلمية الفرنسية والجامعات السودانية والأوروبية بدعم من سفارة جمهورية فرنسا بالخرطوم، فتتيح للدبلوماسية الفرنسية الحفاظ على علاقات مستدامة مع السودان.

الوحدة الفرنسية بالهيئة العامة للآثار والمتاحف كانت على التوالي بقيادة أندري فيلا (1969-1975)، فرانسيس جوس (1975-1984)، جاك رينولد (1984-2000)، فرانسيس جوس (2000-2004)، فانسنت روندو (2004-2009)، كلود ريلي (2009-2014)، وبقيادة فانسنت فرانسيني منذ سبتمبر 2014، مكلفة بالتعاون مع إدارة الآثار

⁷⁸ لمراجعة الأحداث بقيادة جامعة شارل دو غول – ليل 3 في السودان، الرجوع إلى غراديل 2009، 383-400.

⁷⁹ غراديل 2009، 389-390.

⁸⁰ الوحدة الفرنسية بالهيئة العامة للآثار والمتاحف أحد (المعاهد الفرنسية للبحث في الخارج IFRE) السبعة وعشرين، بتمويل من وزارة الشؤون الخارجية والتطوير الدولي الفرنسية - www.sfdas.com; <http://www.ambafrance-sd.org/SCAC-service-de-cooperation-et-d-293>.

السودانية في أنشطتها الميدانية (أعمال الحفر والتنقيب)، شاركت أولاً في العمليات الأخيرة لحملة إنقاذ النوبة، والتي جاءت سابقة لتجمع مياه البحيرة المرتدة لسد أسوان.

تم تكليفها بمواصلة التحديد المنتظم لمواقع على ضفة النيل جنوب هذه البحيرة. كما أجرت هذه الوحدة من جهة أخرى عدداً من الحفريات المبرمجة خاصة بمواقع مسيمنية (مقبرة نبتية، ومروية، والمجموعة س ومسيحية)، الكدادة (مقبرة منذ العصر الحجري الحديث، والمروية وما بعد المروية)، الكدروكة (تل جنائزي منذ العصر الحجري الحديث)، والهوبجي (مدافن تليّة منذ عصر ما بعد المروية).

المسوحات

شاركت الوحدة الفرنسية، إلى جانب الهيئة العامة للآثار والمتاحف خلال أربع سنوات في برنامج المسوحات الأثرية وحفريات الإنقاذ المرتبطة بتأسيس سد آخر بإقليم الشلال الرابع على نهر النيل. بدأ هذا البرنامج في العام 2001 وانتهى في 2005. ثم تم تكليف الوحدة الفرنسية من قبل الهيئة العامة للآثار والمتاحف للقيام بأربع مشاركات في مناطق التوطين المختارة لاستقرار سكان الشايقية والمناصير الذين يسكنون حالياً منطقة الشلال الرابع، وتقع هذه الأقاليم بالقرب من الدبة وكورتي وعطبرة وأبو حمد. إنّ المرحلة الأولى من هذا البرنامج والتي انتهت في ديسمبر 2002، تضمنت إقليم الملتقى شرق الدبة. وخلص المسح إلى التعرف على مائة وسبعة وأربعين موقعاً ذات أهمية أثرية. يتضمن إسهامها في المقام الأول ما قبل التاريخ، وعلى وجه الخصوص مواقع تشذيب الحجارة في فترة العصور الحجرية الوسطى، ومواقع سكنية حديثة من العصور الحجرية الوسطى أيضاً "الميزوليتية" والعصر الحجري الحديث بالخرطوم، ومدافن تلية تعود إلى النصف الثاني من القرن الخامس قبل الميلاد (شكل رقم 11).

وهناك حملة إنقاذ أخرى تم إجراؤها على الضفة اليمنى لوادي المقدم من نوفمبر 2003 وحتى أبريل 2004. وتم إحصاء مائة وتسعة وثمانين موقعاً. المواد التي ظهرت على السطح تبين إستغلال الموقع في الفترة الأشولية (العصر الحجري القديم) وكل الفترات الأولى من العصر الحجري المتوسط. كما في الملتقى، فالمواقع من العصر الحجري المتوسط هي مواقع سكنية من الميزوليتية (العصر الحجري الوسيط) الخرطوم والعصر الحجري الحديث الخرطوم. إنّ حفر أربع مقابر فترة ما بعد مروي بامتدادات منخفضة يبرهن استقرار مجتمعات صغيرة على حافة الوديان في المناطق النائية والمواقع المسيحية الأكثر عدداً، معظمها قبوراً منعزلة، وأحياناً منظمة في مجموعات ذات وحدات صغيرة.

وعلى صعيد آخر تم مسح الإقليم الثالث جنوب الدامر من أكتوبر وحتى ديسمبر 2004. على مساحة 240 كلم² (جنوب الدامر، موقع المكابراب) حيث تم إحصاء خمسة وثلاثين

موقعاً معظمها على مسطحات النيل القديمة، تقع على بعد كيلومترات قليلة شرق المجرى الحالي للنهر. الموقع الأقدم هو موقع سكني من العصر الحجري الحديث والأوسط بالخرطوم والعصر الحجري بالخرطوم. إنّ الشظايا المكتشفة بالموقع والتي يمكن مقارنتها بالخزف الموجود في كرمة القديمة تعتبر الأولى في إقليم النيل الأوسط. وهناك مقبرة صغيرة من المقابر المروية وفوق المروية بدون مواد كانت تمثل موضوع حفريات الإنقاذ، كما تمت دراسة بعض القبور التلية المنعزلة في العصر المسيحي.

كانت العملية الأخيرة تحت عنوان "مشروع الإنقاذ الأثري الكحيلة شرق"، أجريت في يونيو 2005، وضمت منطقة الكحيلة بين أبو حمد في الأسفل وقرية محيصة في الأعلى. ويتميز هذا الإقليم الصحراوي بشكل أساسي بالسهول الحصوية التي تمر عبرها وديان صغيرة أهمها وادي القعود. وتنتهي معظم المواقع التي تم التعرف عليها إلى العصر الحجري الحديث. وكذلك يجب ذكر مواقع تعود لعصور كرمة وما بعد مروى والعصور المسيحية.

الحفريات الأثرية

أ. الهوجي⁸¹

تقع على الضفة اليسرى للنيل على بعد 70 كيلومتراً أعلى مروى، تم الكشف عنها في الفترة من 1985 وحتى 1990 بواسطة بعثة فرنسية سودانية (الوحدة الفرنسية/ الهيئة العامة للآثار والمتاحف) بقيادة باتريس ليونوبل. لا توجد أية إشارة للتمييز بين هذه المدافن التلية الأميرية من عصر ما بعد مروى عن مئات المدافن الأخرى في الإقليم. ومن ثم تم التعرف على سبع مقابر واثنين من الحفريات. كما تم اكتشاف مواد كثيرة (شكل 12)، شبيهة بتلك التي تم اكتشافها داخل الأهرام في العصر المروي المتأخر: أوانٍ جنائزية وأسلحة وعلامات المملكة المروية (أقواس وسهام ورماح ونشابات وسيوف) وأطباق من البرونز المحفور إلى جانب العديد من العناصر التصويرية المروية: الصل المقدس والضفادع وأزهار اللوتس... الخ.

إنّ دراسة هذه المدافن ومقارنتها مع أيقونية المقابر (مصليات الأهرامات) أو غيرها من المعالم الأثرية الملكية المروية (المعابد والقصور) يعطينا معلومات مهمة عن خصائص الطقوس الملكية، وكذا الأسلحة الوفيرة المكتشفة داخل هاتين المقبرتين يمكن مقارنتها مع المشاهد الأيقونية أو التصويرية الملكية المروية: مذابح السجناء ومشهد ولاء الأقواس التسعة (البلدان الخاضعة للحكم الملكي). وعلى صعيد متصل فإنّ اكتشاف موقع الهوجي يعتبر أمراً في غاية الأهمية، لأنه يبرهن عن عدم سقوط هذه المنطقة، كما كان يُعتقد منذ

⁸¹ ليونوبل 1997، 289-308؛ ليونوبل 1999، 157-197؛ ليونوبل 2004، 193-195.

فترة طويلة، بعد افتراضية سقوط مروى. واستمرت هذه الثقافة الغنية الغارقة بالتأثيرات المروية لعدة قرون.

ب. الكدادة⁸²

تم اكتشافها في 1976، ويعتبر موقع الكدادة من المواقع النادرة في العصر الحجري الحديث المعروف في إقليم سندي (شكل 13). أقدم الآثار للاستغلال هي شظايا إناء الخزف الذي يشير الديكور الموجود عليها إلى تعمير سكاني (الميزوليتية في الخرطوم)، على الرغم من أنه لم يتم اكتشاف أيًا من المواقع في هذه الفترة (فترة التحول اللاحقة) إلا أنّ البقايا الأثرية التي تم التعرف عليها تدل على موطن صغير يدعى الكدرة، على بعد أقل من مائتي متر. ومن جهة أخرى لم يتم إحصاء هذه الآثار (آثار الإستغلال) في العصر الحجري الحديث بالخرطوم التي تعود إلى الألفية الخامسة قبل الميلاد، لم يتم إحصاؤها. يبدو أن الاستيطان لعصور ما قبل التاريخ في هذه الفترة قد تم تحويله لموقع الغابة، 700 متر جنوباً.

إنّ ديكور الأواني المصنوعة من الفخار المزخرف الذي تم اكتشافه في مقابر الغابة يمكن مقارنته مع ذلك الذي تم إكتشافه في الشهبيناب، موقع يرمز للعصر الحجري الحديث في الخرطوم. جاء اكتشاف مقابر العصر الحجري الحديث بالكدادة لتأكيد مقترح عالم الآثار الإنجليزي أركيل، مخترع ميزوليتية العصر الحجري الحديث بالخرطوم، حلقة ما قبل التأريخ المتأخرة. وقد طور سكان الكدادة في العصر الحجري الحديث ابتداءً من الألفية الرابعة قبل الميلاد ثقافة معقدة تتجلى في الفخار المصقول والمزخرف، والأشكال الجديدة، ودقة الآلات الحجرية، والثروات الكبيرة من الودائع الجنائزية (شكل 14).

يضم موقع الكدادة أيضاً عدداً من المقابر التاريخية، منذ العهد النبتي وحتى العصر ما بعد مروى، من القرن الثامن قبل الميلاد وحتى السادس الميلادي. وقد أكدت المواد الجنائزية وطقوس القبور ما قبل المسيحية أنّ الدين الجنائزي لم ينته بنهاية مروى وإنما مع بداية المسيحية في العصر السادس الميلادي.

ج. الكدروكة⁸³

يقع وادي الخوي الذي يمثل أحد أذرع النيل القديمة، على الضفة الشرقية للنهر جنوب الشلال الثالث. تشغله كثافة عالية من المواقع الجنائزية والسكانية بما فيها مواقع من العصر الحجري الحديث التي تأخذ مكانة مهمة. وقد أزاحت التعرية بفعل الرياح مواقع السكان بشكل ملحوظ، والتي لا يمكن التعرف عليها في الوقت الحالي إلا من خلال تدفق المواد على السطح.

⁸² رينولد 1986، 159-169؛ رينولد 1994، 51-66؛ رينولد 2008؛ ليونوبل 1987، 89-119.

⁸³ رينولد، 1991، 16-29؛ رينولد 1998، 19-40؛ رينولد 2000.

المقابر المستقرة على التلال لها مقاومة كبيرة في الواقع، وتعتبر حفرياتها الآن متوسطة من ناحية الامتياز لفهم المجتمعات ساكنة الإقليم بين الألفية السادسة والرابعة. التدخلات الإنقاذية بقيادة الوحدة الفرنسية، ونتيجة لارتباط الإقليم ببرامج التطور الزراعي منذ سنين، مكن هذا من التعرف على خمسين من هذه المواقع التي كانت في العصر الحجري جئائزية، وسكنية. وبالإضافة إلى العشرين مقبرة المعروفة هناك ست تم الكشف عنها بصورة كاملة أو جزئية بواسطة الوحدة الفرنسية. باستثناء اثنين من التلال الجئائزية التي يجب أن تتجاوز ألفاً من القبور الأخرى تحتوي على قرابة المائة من المدافن، أي حوالي 700 قبراً، يعود تاريخها إلى ما بين 4800 إلى 4000 قبل الميلاد، التي تم تسجيلها وقتذاك. يبدو أن الثوابت والمتغيرات التي لوحظت في مجال الثقافة المادية وعادات الدفن تعكس في الوقت نفسه التجانس السكاني والتطور السريع لنسيجهم الاجتماعي. وتؤكد هذه المقابر على أن تنظيم الأولويات قوي على نحو متزايد. وقد ظهرت زعامات وشخصيات بارزة خلال العصر الحجري الحديث، وشكلت هذه المجتمعات أساس الدول الأولى قبل التاريخ، تمهيداً لظهور الممالك الأولى.

د. حفريات أثرية فرنسية أخرى

من بين الحفريات الأخرى النشطة في السودان نذكر صادنقا⁸⁴ التي تقع بين الشلالين الثاني والثالث على الضفة اليسرى للنيل. يوجد هذا الموقع على بعد ثلاثين كيلومتراً جنوب جزيرة صاي، تم التعرف عليه أولاً من خلال بقايا معبد الملكة تبي (الزوجة العظيمة لأمنحوتيب الثالث). إلى جانب العمود الوحيد الذي ظل قائماً، ويتصف هذا العمود بالهشاشة بحيث لا يمكنه تحمل إجراء حفريات دون ترميم الصخور الرملية المتفتتة المكونة له. وهناك مقبرة ضخمة نباتية ومروية تمتد بين المعبد والصحراء بحوالي 40 هكتاراً عرفت حالياً بأنها الأكبر مساحة والمحافظة عليها في النوبة.

على بعد بضعة كيلومترات من شلال دال وبحيرة النوبة التي تغطي من الآن فصاعداً النوبة السفلى تقع جزيرة صاي⁸⁵، وهي محافظة أثرية حقيقية، محمية طبيعياً بالتطور البشري وتضم ضفتي وادي النوبة، وتعد إحدى أكبر الجزر التي تحد النيل، فهي تضم بقايا تمتد من العصر الحجري القديم وحتى العصور الحديثة. كما تمثل موضوعاً لحملات كشفية منتظمة. كما تعد هذه الجزيرة قضية إقليمية رئيسة بين الممالك النوبية والإمبراطورية المصرية، احتفظت خصوصاً ببقايا مدينة فرعونية تم الكشف عنها بواسطة طرف ثالث تحت جدران قلعة من العصر العثماني. تغطيها من الناحية الشمالية مقبرة ضخمة تعود لفترة ما بعد

⁸⁴ ريلي وفرانسيني 2010، 62-68؛ ريلي وفرانسيني 2011، 72-79.
⁸⁵ فرانسيني 2010، أ، 62-67؛ 2010، ب، 56-61؛ 2015، 201-212.

مروي، كما تحتوي الجزيرة أيضاً على مقابر تنتمي إلى الإمبراطورية الجديدة، وكذا إلى عصور كرمة، والعصور النبتية والمروية والمسيحية.

الخاتمة

بفضل الأنشطة التي تم إنجازها على كل المواقع المذكورة، والبحوث التي قادتها الآثار الفرنسية والدولية خلال ما يقارب الستين عاماً، حصل التراث السوداني على الإعراف الدولي الذي يستحقه. مجموعة متنوعة من المقاربات المذكورة جنباً إلى جنب مع عدد متزايد من التعاون والشراكة الدولية، يساعد في تطوير هذا المجال وإثرائه، الذي لا شك أنه في ريعان شبابه، والسؤال الذي يطرح نفسه، ما هي الدراسات النوبية؟

في الوقت الذي يمثل فيه علم الآثار الميداني جزءاً في غاية الأهمية، وخصوصية تدريب الباحثين المختصين في هذا المجال، حيث يتجاوز دور الوحدة الفرنسية بالهيئة العامة للآثار والمتاحف اليوم صلاحياته الأولية. نصرٌ هنا حول الدور الأساسي الذي تلعبه بفضل تدريب مختصي الآثار الفرنسيين والسودانيين في حماية وإثراء التراث السوداني عالمياً.

من خلال المعرضين 1997 بمعهد العالم العربي "السودان، ممالك على النيل"⁸⁶ ومن ثم في 2010 بمتحف اللوفر "مروي، إمبراطورية على النيل"⁸⁷، فإن الجمهور على بينة من حقيقة البحث العلمي في السودان، كما أظهر شهية متزايدة لهذا البلد وتاريخه. ومع ذلك، الأراضي العلمية بأسرها لا تزال غير معروفة وفي انتظار الكشف عنها. ويعد إقليم كردفان مهماً جداً لفهم العلاقات المصونة مع إفريقيا الوسطى، أو المنطقة الواقعة جنوب مدينة الخرطوم، تعتبر أمثلة جيدة. على الرغم من ذلك، سواء الحفريات المنتظمة أو الدراسات الإستقصائية، فإن النتائج المتحصل عليها في أكثر بقليل من نصف قرن كبيرة. إكتشاف دوكي قيل، بالقرب من العاصمة القديمة كرمة، ومخبأاً للتماثيل المهشمة لحكام نبتة، أو في علم الآثار من العصر الحجري الحديث، إكتشاف قبر مع قربان بشري بالكدادة، فكل هذه تعتبر كاشفة (شكل 15).

في الوحدة التالية المخصصة للتخطيط الحضري المروي، على الرغم من التقدم المتسارع المنجز بواسطة مجال علم الآثار في السودان، سنرى أن "الأشياء المفرحة" لا تزال في بداياتها.

⁸⁶ فيلدونغ 1997.

⁸⁷ بو 2010 ب.